



رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

# الغزو الثقافي والهزيمة النفسية

إعداد

الدكتور الطيب بن المختار الوزاني

الأستاذ في الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين - المغرب

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصول والمحاورة

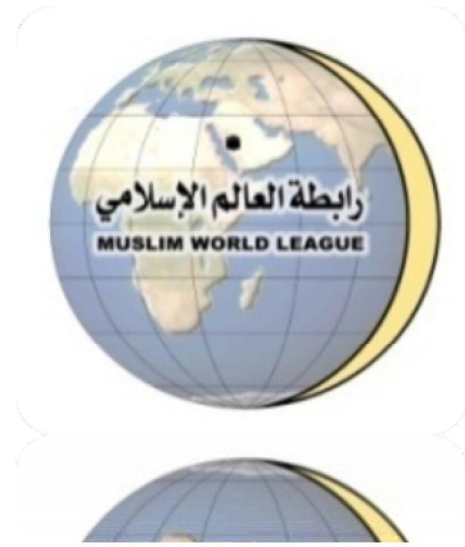
الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤-٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ

٢٨-٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م



## رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩ - الفاكس: ٥٦٠١٣١٩ - ٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تليكس: ٥٤٠٠٠٩ و ٥٤٠٣٩٠

[www.themwl.org](http://www.themwl.org)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

يسعى هذا المقال إلى محاولة البحث في ظاهرة الهزيمة النفسية للأمة أمام الثقافة الغربية والغزو الثقافي، ولتجلية المفهوم كان لابد من تحديد دلالات الهزيمة وما يستدعيه المفهوم من أنواع وخصائص وسمات الشخصية المنهزمة ومن علاقات مع مفهوم الحرب والحرب النفسية، ومع مفهوم الابتلاء والفتن، ثم كان لازماً تتبّع نشأته وتطوره وحديثاته في المرحلة الحديثة والمعاصرة، حيث يمكن اعتبارها أهم مرحلة تاريخية انهزمت فيها الأمة أمام الغرب عسكرياً وثقافياً، مع تتبع المواطن والمجالات التي تسللت منها الهزيمة (سياسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً..). ورغم تعقيد الظاهرة وتشعب مساراتها وتداخل أسبابها وصعوبة الإلمام بعواملها، كان لابد من الوقوف عند محاولة تبين بعض أسباب ظاهرة الهزيمة النفسية للمثقف المسلم المعاصر، والوقوف أيضاً على حجم آثارها وانعكاساتها، ثم محاولة اقتراح سبل العلاج والخروج من هذه الحالة المرّضية إلى الحالة المرّضية، ومن تشخيص واقع الأمة المشهود المرذول إلى استشراف الموقع المنشود لها والمأمول.

فما هي دلالات لفظ الهزيمة؟ وما هي طبيعة الهزيمة النفسية أمام الغزو الثقافي والفكري؟ وما خصائص النفسية المنهزمة؟ وما هي طبيعة العوامل وأنواعها التي كانت وراء تشكل هذه الظاهرة ونموها وتضخمها؟ وأي أثر أحدثته في جسم الأمة؟ وأخيراً ما السبيل لدفع هذه المفسدة وجلب ما فيه المصلحة؟ هذا ما يجيب البحث عنه.

ومن أجل تحقيق هذه المقاصد، تم تقسيم المقال إلى العناصر والمباحث التالية: تقديم: في تأطير ظاهرة الهزيمة - موضوع الدراسة - تأطير تاريخياً وأهمية ذلك.

المبحث الأول: مفهوم الهزيمة النفسية: دراسة دلالية وتداولية

١ - نحو دراسة دلالية

٢ - نحو دراسة تداولية للمفهوم

٣ - في الاستعمال القرآني

المبحث الثاني: علاقات الهزيمة النفسية بمفاهيم أخرى

١ - الهزيمة النفسية والحرب النفسية أية علاقة؟

٢ - الهزيمة النفسية والغزو الثقافي

٣ - الهزيمة النفسية والابتلاء والفتن

المبحث الثالث: أنواع الهزيمة وأقسامها

المبحث الرابع: تاريخ الهزيمة النفسية للأمة

١ - مرحلة ما قبل الاستعمار

٢ - مرحلة الاستعمار

٣ - مرحلة ما بعد الاستعمار

المبحث الخامس: أسباب الهزيمة النفسية

١ - أسباب ذاتية داخلية

٢ - أسباب خارجية

المبحث السادس: آثار الهزيمة النفسية على الأمة

١ - على المستوى الثقافي والفكري (العقدي)

٢ - على المستوى السياسي

٣ - على المستوى القضائي والقانوني

٤ - على المستوى الاقتصادي

٥ - على المستوى الاجتماعي

المبحث السابع: سبل العلاج من مرض الهزيمة النفسية

خاتمة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

مرت الأمة المسلمة في المرحلتين الحديثة والمعاصرة - على الأقل - بأحلك الأزمات في تاريخها، أزمات متعددة الأنواع، متشعبة المسالك، خطيرة النتائج والمهالك، إذ لم تكد تستفيق من وهبتها الحضارية حتى صُدمت بالنكبة الاستعمارية، وما كادت تدخل عصر استقلال دولها حتى وقعت في فخ التبعية السياسية والفكرية والثقافية، وما كادت أيضا تشق طريقها في التنمية والخروج من التخلف حتى فاجأتها العولمة الشرسة بشتى القيود المكبلة والسالبة لكل الإمكانيات والقاصمة الظهر بكل أنواع الاتفاقيات، فزادت الأمة ضللاً وزيغاً، وزادت اغتراباً واستلاباً، وشرعت الأمة الإسلامية اليوم في أخطر تراجع حضاري في تاريخها، وأكبر انحسار ثقافي، وأزمن عجزاً عن التفاعل الإيجابي مع الواقع الفكري المحلي والعالمي.

ومع دخول عصر العولمة الثقافية وجدّت الثقافة الإسلامية نفسها أمام تحديات عديدة، تحديات النقص والقصور، وتحديات تهدم ما بُني عبر التاريخ من حصون وقصور، ولعل من أخطر ما أصاب الأمة هو الغزو الثقافي والعجز عن مقاومته المقاومة الفاعلة، غزو وُلد آثاراً خطيرة تمثلت في غياب الأمة شبه التام عن ساحة التفاعل الإيجابي وفي كل المجالات أفقياً وعمودياً، واستقالة مثقفها وعلمائها عن العمل الثقافي الباني للشخصية المسلمة المتوازنة وعن الجهاد العلمي لحفظ الأمة من الذوبان في بحر الهزيمة الحضارية والفشل في مقاومة الضغوط النفسية كالأحباط والفشل واليأس، وفقدان الثقة في الذات والتبعية الفكرية والثقافية.

بناء على ما سبق فإن من أبرز الإشكالات التي تواجه هذا البحث هو التساؤل عن:

ما دلالة مفهوم الهزيمة النفسية لسانيا؟ وما هي أبعاده التداولية والحضارية؟ وما هي آلياته ومقاصده؟ وما هي شروطه التاريخية وعوامل تشكّله؟ ثم ما هي علاقته بالغزو الثقافي والحرب بشقيها المادي النفسي؟ وإلى أي حد استطاعت التأثير في كيان الأمة؟ وما هي المجالات التي تم اختراقها ثقافياً، وكيف أثر ذلك في إدخال الهزيمة إلى نفوس المسلمين؟ وأخيراً هل من سبل لعلاج هذه الأمراض؟

## المبحث الأول

### مفهوم الهزيمة النفسية: دراسة دلالية وتداولية

في البداية يحسن بيان دلالات مفهوم الهزيمة النفسية بقصد استنباط خصائص وسمات الشخصية المنهزمة وتبين أنواع الهزيمة بحسب ما توحى بها دلالاتها اللغوية والاصطلاحية، وعلاقتها ببعض المفاهيم الداخلة معها في نفس الحقل الدلالي، فكيف ذلك؟

#### ١ - نحو دراسة دلالية

يحتاج تحديد مفهوم الهزيمة النفسية إلى تفكيك المركب الوصفي وتحديد دلالات كل عنصر على حدة، وبعد ذلك تحديد دلالات المركب لأن المركب مبني على المفرد، لذلك نبدأ أولاً ببيان لفظ الهزيمة ودلالاتها ثم لفظ النفس ودلالاتها، وذلك عبر ثلاثة مستويات، مستوى لغوي ثم اصطلاحية ثم في الاستعمال القرآني.

#### ١-١ - مفهوم الهزيمة في اللغة

ورد لفظ الهزيمة في لسان العرب دالاً على معاني عديدة منها:

١-١-١ - الشني والعطف والانعطاف.

١-١-٢ - كسر شوكة الخصم وقهره.

١-١-٣ - الحفر.

١-١-٤ - هضم الحقوق وسلبها.

١-١-٥ - إحداث الكسر والشق في شيء ما.

١-١-٦ - الذبح.

١-١-٧ - الهدم والانهدام.

١-١-٨- لعبة فيها ضاربون ومضروب على وجهه مع تغطية وجهه للتعمية: المهزام.

١-١-٩- سحاب لا ماء فيه.

١-١-١٠- الطاعة والانقياد.

١-١-١١- كبر السن مع ضعف.

١-١-١٢- صوت القدر وهو في حالة غليانٍ شديد<sup>(١)</sup>

١-٢- اصطلاحا:

يفيد مصطلح الهزيمة/ الانهزامية: «defeatism» معنيين:

١-٢-١: نزعة دعاة الهزيمة<sup>(٢)</sup> والتردد تتجلى لدى ضعاف العزيمة.

١-٢-٢: روح السلبية والتردد والتراجع التي تسيطر على دولة أو شعب أثناء قيام صراع بينها وبين دولة أخرى، سواء من خلال حرب فعلية أو حرب باردة<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر في هذه المعاني والاستعمالات: لسان العرب، والقاموس المحيط، والصحاح في اللغة، ومقاييس اللغة: مادة هزم

(٢) دعاة الهزيمة نوعان:

نوع أول يمثله دعاة من خارج الأمة وهم الأعداء؛ فهم أول من يدعو إلى الاستسلام والتخلي عن المقاومة (بجميع أنواعها، وهي هنا المقاومة الفكرية والنفسية)، ويبدلون كل الإمكانيات والوسائل لاختراق الصف من هذه الجانِب.

ونوع ثان يمثله دعاة الهزيمة من داخل الأمة وهم أول فئة انهزمت وانكسرت نفوسهم أمام العدو، وينطلقون في الدعوة إلى قبول الواقع وتبرير الهزيمة بألفاظ جديدة يتم تسويقها والإقناع بها كالتعايش والتعاون والحوار والتبادل الثقافي...

(٣) الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية إنجليزي عربي مصطلح: انهزامية:

deafitism



## ١-٣- لفظ النفس لغة واصطلاحاً

يعتبر مفهوم النفس واحداً من أكبر المفاهيم التي وقع في تعريفها خلاف كبير في القديم والحديث لاختلاف تصوُّره ثم لاختلاف الموقف الفلسفي من وجوده وعدمه.

ومن بين هذه التعريفات تعريفها بأنها:

١-٣-١- «جوهر الإنسان ومحرك أوجه نشاطه المختلفة، سواء أكانت إدراكية أو حركية أو فكرية أو انفعالية أو أخلاقية... وسواء أكان ذلك على مستوى الواقع الفعلي أم مستوى الوهم المتخيَّل، والنفس بهذا هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلها وتبادلها التأثير المستمر والتأثر، مكونين وحدة متميزة نطلق عليها لفظ «شخصية»، تميِّز الفرد المعين عن غيره من الناس»<sup>(١)</sup>.

وأصبح مفهوم النفس موضوع الدراسة العلمية للظاهرة الوجدانية والحالات الانفعالية والسلوكية للإنسان، ويُعرَّف العلم الذي يدرُس النفس الإنسانية وظواهرها الباطنية والخارجية بعلم النفس. وقد عرَّف هذا العلم بعدة تعريفات منها:

١-٣-٢- «العلم الذي يدرُس «الحياة النفسية» وما تتضمنه من أفكار ومشاعر وإحساسات وميول ورغبات وذكريات وانفعالات».

١-٣-٣- «العلم الذي يدرُس أوجه نشاط الإنسان وهو يتفاعل مع بيئته ويتكيف لها»<sup>(٢)</sup>.

١-٣-٤- «الدراسة العلمية لسلوك الإنسان وتوافقته مع البيئة».

(١) علم النفس أصوله ومبادئه: د أحمد محمد عبد الخالق ود. عبد الفتاح محمد دويدار، ص. ١٢، ط. ١٩٩٩، دار المعرفة الجامعية.

(٢) أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح، ص. ٣، ط. ١٩٦٨، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

ويظهر من هذه التعريفات جملة أمور منها:

- مفهوم النفس يشمل الإنسان بجانبه الباطن والظاهر، فكرياً وأحوالاً وسلوكاً.  
- أن علم النفس علم يدرُس الإنسان في بعده النفسي / والوجداني، والفكري /  
العقلي، والسلوكي / العملي، والتفاعلي مع البيئة المحيطة به إنسانية  
وطبيعية.

- أن الحالة النفسية للإنسان هي خلاصة تفاعلٍ بينه وبين محيطه الإنساني  
والطبيعي بقصد التوافق والتكيف.

وإذا كان الأمر كذلك فهل الدلالة الاصطلاحية يمكن أن تُفيد نفس المعاني أم لا؟

## ٢- نحو دراسة تداولية للمفهوم

من خلال الدراسة الدلالية (لسانياً واصطلاحياً) يمكن استخلاص  
مجموعة من السمات والخصائص المرتبطة بالهزيمة والهزيمة النفسية على  
المستوى التداولي وذلك على الشكل التالي:

### ٢-٢- على مستوى مكونات فعل الهزيمة:

- هازِم (فاعل) من؟، ومهزوم (منفعل = واحد أو جماعة) مَنْ يتلقى فعل  
الهزيمة؟ وغاية ومقصد، لماذا؟ ووسيلة: كيف؟ وما الوسيلة؟، وسياق: ما هو  
سياق فعل الهزيمة وبيئته؟

### ٢-٣- على مستوى خصائص الشخص / الشخصية المنهزمة:

من خلال الدلالات السابقة يمكن استنباط مجموعة السمات والخصائص  
التي تسم الذات المنهزمة ومنها: الرخاوة والهشاشة، والطواعية والقابلية  
للانقياد وسهولته أو الذلة والمهانة والخضوع): والدلالة الاصطلاحية: الضعف  
والهزال، والخواء، والعمى، والتصدع والتهدم، والموت والفناء، والعجز عن  
الحفاظ عن الذات أو عن حق من حقوقها.

## ٢-٤ - على مستوى المقاصد والغايات:

تفيدنا المعاني اللغوية والاصطلاحية لمفهوم الهزيمة والنفس والغزو الثقافي في تبين جملة مقاصد وغايات تلزم فعل الهزيمة في المجال النفسي والغزو الثقافي باعتبار الغزو الثقافي والهزيمة فعلين قصديين؛ وتظهر هذه القصدية في: القصد إلى ثني الطرف المهزوم عن تصوّره وفعله وموقفه ثنياً يمس «الجانب الإدراكي أو الفكري أو الانفعالي أو الأخلاقي»، وقصد كسر شوكة الخصم المادية والمعنوية، وقصد هضم حقوقه وسلبها بدون أدنى منازعة، وقصد إضعافه لجعله أكثر تبعية، وقصد إرباكه وإحداث حالة الاضطراب والتردد والتحير لديه، ومقصد الإهلاك والإفناء، وهو أهم مقاصد الغزو الثقافي والهزيمة الثقافية والحروب النفسية وليس بعده هدف.

## ٢-٥ - على مستوى السياق:

يلاحظ أن ظاهرة الهزيمة النفسية لا تأتي من فراغ ولا تتولد من عوامل فطرية فقط، بل هي خلاصة تفاعل الفرد مع محيطه الاجتماعي، وتفاعل الأمة مع محيطها الأممي، وبهذا فهي ظاهرة تنشأ أولاً في سياق الحرب والتدافع بمعنييهما الشامل، وثانياً في سياق التفاعل والانفعال، وثالثاً في سياق الرغبة الغريزية للتفوق والهيمنة سواء بين الأفراد أو بين الجماعات، أو بين الأمم والشعوب، أو بين الحضارات، كما تنشأ في سياق غريزة الدفاع والتكيف.

والخلاصة في هذا المقام: أن ظاهرة الهزيمة النفسية أمام الغزو الثقافي ظاهرة معقدة تتداخل فيها مختلف الأبعاد النفسية والاجتماعية والفكرية والسياسية، كما يتداخل فيها البعد المادي والمعنوي، وتشعب امتداداتها أفقياً وعمودياً لتنتج لنا ظاهرة معقدة تحتاج إلى وجوب تضافر جهود كل المعنيين بالإصلاح في المجالات العلمية المذكورة أن يسهموا في دراسة الظاهرة وصفاً وتفسيراً

وتنبؤاً وتحكماً، تشخيصاً للواقع الموجود، واستشرافاً للمتوقع المنشود.

### ٣- في الاستعمال القرآني

يلاحظ ابتداءً أن مصدر الهزيمة أو الانهزام لم يرد في القرآن الكريم، وإنما وردت الصيغة الفعلية، ويمكن تقريب الاستعمال القرآني باختصار شديد في العناصر التالية:

#### ٣-١ - المواطن التي وردت فيها الصيغ الفعلية للمصدر «هزيمة»:

الصيغة	الآية	المعنى المراد	السورة	الآية
هَزَمَ	فَهَزَمُوهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ دَجَالُوتَ	فغلبوهم وقهروهم	البقرة	٢٥١
سَيُهْزَمُ	سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ	سيُغلب	القمر	٤٥
مهزوم	جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ	مغلوب	ص	١١

#### ٣-٢ - دلالات

يلاحظ بخصوص الاستعمال القرآني أن لفظ الهزيمة جاء دالاً على أمور منها:

- \* خسران في معركة عسكرية، أو ضعف نفسي في مقاومة الخصم (الجبن، الخوف، ضعف الثقة في النفس،....)
- \* الهزيمة سواء أكانت عسكرية أم نفسية فهي جالبة للذل والهوان والحزن والانكسار واليأس والتفرق والهلاك والإهلاك..
- \* أن الأسباب الجالبة للنصر هي موانع الهزيمة والعكس صحيح، والآثار المترتبة عن الهزيمة هي نقيض الآثار المترتبة عن النصر.

٣-٣ - علاقات دلالية: يرتبط مفهوم الهزيمة بمفهوم النصر ارتباطاً تلازمياً، رغم أنهما متضادان، كما يرتبط كل واحد منهما بمفاهيم أخرى إما مرادفة له، وإما تأتي سبباً له أو نتيجة:  
ففيما يتعلق بعلاقات الترادف نجد مثلاً ألفاظ نحو: القتل، القرع، البأس، العذاب.

أما الألفاظ التي ترتبط بالهزيمة بعلاقة السببية، أي أن بعضها سبب في الهزيمة مثل ألفاظ: الضعف، الخذلان، النفاق، الكذب، الفساد، الكفر، الضلال، الظلم، البغي، اليأس، الخوف، التفرق، التولي (...)، وعلاقة المسببية، أي أنها نتيجة وأثر للهزيمة، نحو: الخسران، الذل، الضعف، الاستكانة، الهوان، الحزن، الهلاك، اللعنة، القهر..).

ونفس الأمر هنا فبعض الألفاظ ترتبط بمفهوم النصر بعلاقات: علاقة الترادف، أي أنها مرادف له، نحو: (الغلبة، التمكين، الفتح، الظهور، ..). وعلاقة السببية، أي أن بعضها سبب في النصر نحو: (القوة، الثبوت، الصدق، الصبر، الاعتصام بالله، ..). وعلاقة المسببية، أي أنها نتيجة وأثر للنصر (التمكين، الفتح، الاستخلاف، النجاة، الولاية، التأيد، السلطان..).

إنه حقل دلالي يفيد أن للنصر والهزيمة أسباباً وموانع، وحكماً وأحكاماً، وآثاراً ومآلاً في الدنيا والآخرة، وصفات مادية ظاهرة وصفات معنوية/ نفسية يتصف بها كل صنف وبها يتميز.

٣-٤ - سياقات: ورد الحديث عن الهزيمة والنصر في القرآن الكريم ضمن سياقات محددة تدل عليها أسباب النزول من جهة وسياق القرآن الكريم العام والخاص، وهي سياق التدافع وسياق الثبوت للفئة المؤمنة، وسياق حفظ الأمة من الخسران، وتأهيلها للشهادة والإمامة.

## المبحث الثاني

### علاقات الهزيمة النفسية بمظاهير أخرى

#### ١ - الهزيمة النفسية والحرب النفسية أية علاقة؟

لا يمكن الحديث عن حالة الهزيمة والهزيمة النفسية عموماً إلا في سياق الحرب - كما تبين سابقاً - فكلما وُجدت حالة الحرب إلا وُجد منتصر ومهزوم، أو انتصار وانهزام نسيان، بحسب الخصمين قوة وضعفاً توازناً وتقارباً وتفاوتاً.

لذلك نتساءل: ما علاقة الهزيمة النفسية بمفهوم الحرب أو لا؟ وبمفهوم الحرب النفسية ثانياً؟

وقد عرّف مصطلح الحرب عدة تعريفات منها أنها: «هي المعركة التي تشنّها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة مماثلة أو شبيهة»<sup>(١)</sup>، أو هي «نزاع بين قوات مسلحة وفي الوقت نفسه بين عواطف شعبية أو عقائد تشريعية أو اتفاقيات قومية»<sup>(٢)</sup> يلاحظ في التعريفين السابقين ربط الحرب بالجماعات والدول والشعوب، والتعريف الثاني يربط الصراع بالجانب العاطفي / النفسي والعقائدي، مما يعني ارتباط الحرب بالبُعد الثقافي والنفسي.

واعتباراً لهذا وغيره كانت الحرب الثقافية والنفسية جزءاً لا يتجزأ من الحرب، ومن هنا عرّفت الحرب النفسية بأنها «استخدام أي وسيلة بقصد التأثير

(١) الحرب: ظاهرة تاريخية مدخل من أجل فهم سوسيولوجي: سيار الجميل، مقال بمجلة عالم الفكر المجلد: مح. ٣٦، العدد ٢، ٢٠٠٧، ص. ١٤.

(٢) الحرب: ظاهرة تاريخية مدخل من أجل فهم سوسيولوجي، مرجع سابق، ونفس المعطيات.

على الروح المعنوية وعلى سلوك أي جماعة لغرض عسكري»<sup>(١)</sup>، أو «استخدام كافة الوسائل المتاحة وغير المتاحة وتوظيفها توظيفاً مبرمجاً لتشكيك الخصم في موقفه وقدراته وبالتالي إضعافه ثم اختراقه، وفرض الإرادة عليه لتحقيق أهداف معينة مخططاً لها»<sup>(٢)</sup>

وأصبحت الحرب النفسية اليوم في الصراع الدولي أو الداخلي بين الفرقاء سلاحاً فعالاً في هزم الخصم والظفر به وعليه وبأقل الخسائر، يقول اللواء الركن محمد جمال محفوظ: «ويتفق علماء النفس وخبراء الحرب النفسية على أن الحرب النفسية تؤثر بفاعلية أكثر على الجنود الخالين من العقائد الثابتة، وذوي الوعي السياسي الضيق، وغير المثقفين، لذلك كان الإيمان بالنسبة للمسلمين نوراً يهديهم، وكان بالنسبة للأعداء صخرة تتحطم عليها أساليبهم ومحاولاتهم للنيل من معنويات المسلمين»<sup>(٣)</sup>، ويقول في موطن آخر: «الحرب النفسية سلاح فعال وشديد التأثير في المعركة، وقد أجمع العلم العسكري وخبرة الحروب على أنه يساهم مساهمة كبيرة على أعمال القتال وغيرها من أساليب الصراع في تحقيق الانتصار بسرعة وبأقل الخسائر في الأرواح والمعدات.. إن الحرب النفسية تُجرّد العدو من أئمن ما لديه وهو إرادته القتالية، وهكذا تُعتبر الحرب النفسية أخطر أنواع الحروب؛ لأنها تستهدف في المقاتل

(١) الحرب النفسية: صلاح نصر، ١/٩٢، ط. ١، ١٩٦٧م، دار القاهرة.

(٢) الموسوعة الإعلامية موسوعة إلكترونية متخصصة في فنون الصحافة والإعلام والاتصال: على الشبكة:

<http://mediacom.arabblogs.com/archive/2009/9/938966.html>

(٣) النظرية الإسلامية في الحرب النفسية، اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ، ص ٣٩، دار الاعتصام، القاهرة.

عقله وتفكيره وقلبه، لكي تحطم روحه المعنوية، وتقضي على إرادة القتال لديه، وتقوده بالتالي نحو الهزيمة»<sup>(١)</sup>.

وتعتمد الحرب النفسية على كل ما يحقق انهيار الخصم واستسلامه وتنازله، ومن أبرز الوسائل المستخدمة في الحروب النفسية: الإعلام بجميع وسائله وتقنياته: (الدعاية. والإشاعات. وغسيل الدماغ)، والضغط الاقتصادي، والأعمال العسكرية استعراضية أو رادعة (ضربات جوية، حرب استباقية، حرب استنزافية)، وافتعال الأزمات واختلاق المؤامرات، وإشاعة الرعب والفوضى والأخبار المغلوطة<sup>(٢)</sup>.

وبناء على ذلك فإن الحرب النفسية تهدف إلى تحقيق جملة أهداف، أهمها: تحطيم إيمان الخصم بعقيدته لأنها «توجه ضد الفكر والعقيدة والتقاليد والشجاعة والثقة وصناعة القرار»<sup>(٣)</sup>، وتحطيم الوحدة النفسية للخصم العقائدي و«بث اليأس من النصر في نفوس القوات المعادية» و«زعزعة إيمان العدو بمبادئه وأهدافه، وذلك عن طريق: إثبات استحالة تحقيق هذه المبادئ أو الأهداف، وتصوير المبادئ والأهداف على غير حقيقتها، وتضخيم الأخطاء التي تقع عند محاولة تحقيق هذه المبادئ والأهداف» و«تشجيع أفراد على

(١) النظرية الإسلامية في الحرب النفسية، ص ١٥.

(٢) ينظر في أساليب الحرب النفسية ما يلي:

- الحرب النفسية: دكتورة حميدة سميسم، ٢٠٠٤، الدار الثقافية للنشر بغداد.

- الحرب النفسية: أضواء إسلامية: د. فهمي النجار. ط. ١ - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، دار الفضيلة، الرياض السعودية.

(٣) الحرب: ظاهرة تاريخية مدخل من أجل فهم سوسولوجي: د. سيار جميل. مقال بمجلة عالم

الفكر المجلد: مج. ٣٦، العدد ٢، ٢٠٠٧، ص، ٢٧.



الاستسلام وعدم المقاومة»، و«إضعاف الجبهة الداخلية للعدو وإحداث ثغرات داخلها، وذلك عن طريق: إظهار عجز النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن تحقيق آمال الجماهير، والضغط الاقتصادي على حكومة العدو حتى ينهار النظام الاقتصادي، وتشجيع بعض الطوائف على مقاومة الأهداف القومية والوطنية، وتشكيك الجماهير في ثقتها بقيادتها السياسية وقدرة قواتها المسلحة على مواجهة عدوهما المشترك»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يظهر أن الحرب النفسية تستهدف التأثير في الجانب النفسي لأفراد الخصم وإضعافهم فكرياً ونفسياً وسلوكياً، وإدخال الوهن إليهم، وزعزعة ثقتهم في مبادئهم، وإحداث حالة من الشكوك والاضطراب في كل ما يملكون، وجعلهم يميلون إلى تفضيل الاستسلام والاقتراع بأن العيش في كنف العدو خير من الاستقلال عنه، بله الصراع معه.

## ٢ - الهزيمة النفسية والغزو الثقافي:

لما كانت الهزيمة تصيب الحياة النفسية التي هي حياة ثلاثية الأبعاد والمكونات: «المكون العقلي + المكون النفسي + المكون السلوكي» وكانت الثقافة نفسها تتضمن هذه المكونات الثلاثة أيضاً: «العقل + النفس + السلوك» كانت الحياة النفسية هي نفسها الحياة الثقافية؛ لتعذر قيام ثقافة لا تحملها نفوس ولا تنغرس في نفوس، ولتعذر وجود حياة نفسية من غير وجود الثقافة، فطبيعة النفوس من طبيعة الثقافة المكوّنة لها، وجنس الثقافة من جنس النفوس الحاملة لها. ولما كانت الحرب النفسية ليست إلا حرباً على الحياة النفسية في جملتها وعموم مكوناتها، صارت الحرب النفسية حرباً ثقافية، وصارت الحرب

(١) الموسوعة الإعلامية: نفسه.

الثقافية حرباً نفسية أيضاً، وبالتالي فالهزيمة النفسية هي هزيمة ثقافية، والعكس صحيح.

وعندما ننظر إلى الحرب الثقافية التي مورست على الأمة نجد أنها وإن كانت غزواً ثقافياً شاملاً بكل ما تعنيه كلمتا «الغزو» و«الثقافة» إلا أنها كانت حرباً نفسياً بامتياز، وعندما ننظر إلى مفهوم الحرب النفسية نجد أنها مورست على الأمة بكل ما يحمله لفظاً «الحرب» و«النفسية» من اتساع دلالي، لتصبح بمثابة حرب شاملة تستهدف ثقافة الأمة، وقيمها، وأفكارها، وعقائدها، وعاداتها الاجتماعية.

### ٣ - الهزيمة النفسية والابتلاء والفتن

يبدو أن الحديث عن الهزيمة بقدر ما يرتبط بمجال التدافع العسكري والسياسي والاقتصادي والعقائدي والثقافي فإنه يرتبط أيضاً - في التصور الإسلامي خصوصاً - بمفهوم الابتلاء<sup>(١)</sup>، ومفهوم الفتن<sup>(٢)</sup> والتمحيص، ذلك

(١) مدار الاستعمال القرآني للفظ الابتلاء ومشتقاته على معنيين: معنى الإنعام: نحو قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، ومعنى الاختبار: نحو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]. ينظر: قاموس القرآن الكريم أو إصلاح الوجوه والنظائر: الدامغاني. مادة بلو. ومعجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: الراغب الأصفهاني، مادة بلي.

(٢) مدار الجذر الثلاثي (ف ت ن) على معاني: - الإحراق بالنار كفتن الصائغ التبر ليخلص له الذهب، - الابتلاء والتعذيب للتحويل عن الرأي والدين، - الاستهواء والإعجاب، ومنه قولهم فتنته امرأة وفتنه المال، - الاضطراب وبلبلة الأفكار، والوسواس، والضلال. ينظر مثلاً: المعجم الوسيط مادة فتن. وقاموس القرآن الكريم. أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق وترتيب: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين بيروت ط. ٤، ١٩٨٣، مادة فتن ص، ٣٤٧ وما بعدها.

أن السياق العام الذي ورد فيه الحديث عن الهزيمة هو سياق الابتلاء، لأن الأصل في المسلم أن يكون مُتصراً دوماً، بشرط أن تتوفر فيه شروط التأييد والولاية الربانيين. وفي المقابل يكون لحوق أو إلحاق الهزيمة بالمسلم إما أمانة على وجود التقصير منه أو ابتلاءً من الله تعالى واختباراً له، وزيادة في التمحيص والفتن.

وبناء على ذلك فالابتلاء له صور عديدة ودرجات متفاوتة منها: الابتلاء بتسليط العدو على الأمة تسليطاً حسيماً (الحرب العملية)، وتسليطاً معنوياً (حالة الحرب النفسية، كالحصار والمقاطعة، والتهديد، والسخرية والإهانة والاستهزاء، وإثارة الشكوك والدعاية والإشاعة والإفك...)، والابتلاء بالإنعام والإقتار والنعم والنقم، والابتلاء بالشبهات والشهوات (وهو ابتلاء مستمر أيضاً، وهو من الحرب النفسية ووسائلها، وهو شديد المفعول والتأثير كما سيأتي لاحقاً)<sup>(١)</sup>، وابتلاء العقول وابتلاء النفوس، والابتلاء بالتفرق والخلاف المذموم،

(١) ينظر في مفهوم الفتن والابتلاء وأنواعه وخطره وسبل دفعه المراجع التالية على سبيل التمثيل لا الحصر:

- موقف المسلم من الفتن في ضوء الكتاب والسنة: أبو أنس حسين بن محسن أبو ذراع الحازمي، ط. ١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، مطبعة أضواء السلف، الرياض
- الفتنة وآثارها المدمرة: موقف المسلم منها وطرق التثبيت فيها: جمع وترتيب د، أحمد بن إبراهيم بن أحمد، ط. ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار لينا للطباعة والنشر، دمنهور، ومكة المكرمة.
- فقه الفتن في ضوء نصوص الوحي والمعطيات التاريخية لسلف الأمة: د. عبد الواحد إدريس الإدريسي، ط. ١، ١٤٢٨هـ، مكتبة دار المنهاج، الرياض، (أصله رسالة دكتوراه بجامعة ابن زهر
- كلية الآداب والعلوم الإنسانية - شعبة الدراسات الإسلامية، أكادير-المغرب)

«والابتلاء بالخير والشر، والابتلاء بالتكاليف، والابتلاء بالمال والولد، والابتلاء بالمصائب»<sup>(١)</sup>.

إن الابتلاء سنة ربانية في خلقه، يبين القرآن الكريم أن وراءها حكماً إلهية عديدة تتعدد بتعدد وجوه الابتلاء وصوره، ولعل أكبر حكمة من الابتلاء أن تصفو النفوس لله وتخلص له وحده جل وعلا. كالصائغ يفتن الذهب والفضة ليجلو ويصفو ويخلص من الشوائب، ففي صفاء النفوس من أي شيء سوى الله تعالى قوة للنفس وأي قوة! وولاية وأي ولاية! فكيف بنفس صفت وخلصت وأخلصت لربها حتى أخلصها الباري لنفسه أن تكون مهزومة!!

(١) ينظر في هذه الأنواع من الابتلاءات: القرآن الكريم: محمد عبد العزيز الحمادي الرحالي رسالة دكتوراه، الباب الثاني: ص: ٩٨-٢٠٩

### المبحث الثالث

#### أنواع الهزيمة وأقسامها

انطلاقاً من التعريفات الدلالية والاصطلاحية وتاريخ التفاعل الإسلامي مع الغرب يمكن تقسيم مفهوم الهزيمة النفسية التي أصابت المسلمين إلى أنواع عدة بحسب جهات اعتبار وحيثيات مختلفة. فكيف ذلك؟

\* **باعتبار المادي والمعنوي:** يمكن تقسيم الهزيمة إلى هزيمة مادية وهزيمة معنوية، فالأولى تتعلق بخسائر مادية في الجسم والمتاع، وهذه الهزيمة وإن كان ضررها كبيراً إلا أن الهزيمة المعنوية التي تلحق الفرد والمجتمع تكون أشدّ وأثلم.

\* **وباعتبار الفردي والجماعي:** هناك هزيمة نفسية فردية، وأخرى جماعية: والنوع الثاني أشدّ خطراً وضرراً على الأمة.

\* **وباعتبار نوع المهزوم وفتته:** هناك هزيمة العامة والجماهير، وهزيمة الخاصة من العلماء والمثقفين والدعاة ورجال الفكر والإصلاح. وهزيمة الخاصة أدهى وأمرّ وإن كان في كليهما مرارة وحقارة لأن العلماء والدعاة والمصلحين هم جهاز المناعة الحقيقي في الأمة، فإذا أصيب جهاز المناعة في الجسم أسرع الانهيار إلى الجسم كله.

\* **باعتبار الجزئية والكلية:** هناك هزيمة كلية أو غالبية وهزيمة جزئية: فالهزيمة النفسية الجزئية لا تُصيب الفرد في كل أحواله النفسية وفي كل أوقاته ومواقفه بل قد تُصيبه في وقت دون وقت، وقد تصيبه في موقف معين دون باقي المواقف، وقد تصيبه في حال دون حال، ونفس الأمر بالنسبة لهزيمة الأمة والمجتمع فالهزيمة الجزئية قد تصيب فئة دون أخرى، وقد تصيب قطاعاً دون

بقية القطاعات، وقد تصيبه في وقت دون الآخر، وهكذا، أما بالنسبة للهزيمة الكلية فهي هزيمة تصيب الفرد كله أو في غالبه، وتصيب المجتمع في كليته أو في غالبيته، وهذه الهزيمة أخطر من الأولى لأنها تؤدي إلى تدمير وهلاك المجتمع وذبحه (المعنى اللغوي) وذوبانه في مجتمع الخصم.

\* **وباعتبار المدني والعسكري:** هناك هزيمة نفسية عسكرية تصيب الجنود ورجال الشأن العسكري وهزيمة مدنية تصيب المدنيين نتيجة فشل الجيش أو نتيجة قوة الإصابات والضربات التي وجهها العدو للمجتمع، سواء أكانت ضربات عسكرية مادية في المنشآت المدنية أم ضربات معنوية (حرب نفسية)، قد يحصل بينهما التلازم والاتصال وقد لا يحصل.

\* **وباعتبار النظري والعملي:** هناك هزيمة نفسية عقدية، وهزيمة عملية سلوكية، فالأولى تصيب الجانب النفسي عندما تهتز عقيدة الأفراد في نفوسهم جنودا كانوا أو مدنيين، والثاني عندما يضطرب سلوك الأفراد ويفقدون الثقة في منجزاتهم وتدابيراتهم للحياة الفردية والاجتماعية، ويدبّ إلى نفوسهم الشك في عاداتهم الاجتماعية وأحكام شريعتهم، والنوعان مترابطان ترابطا سببيا، فالهزيمة الفكرية/ العقدية سبب في الهزيمة العملية/ السلوكية، وهي أخطر لأنه بوقوعها يدبّ الانهزام إلى سائر القطاعات والمساويات الأخرى في الأمة (سياسيا اقتصاديا واجتماعيا وعلميا...)

\* **وباعتبار أسبابها ومصادرها:** فقد تكون الهزيمة مصدرها تعرّض المهزوم للتعذيب ووحشيته والتجويع والحصار، وقد يكون مصدرها الإغراء والإغواء، وقد يكون مصدرها الشكوك والتشكيك، وقد يكون مصدرها الملل وطول أمد الحرب والصراع...

غير أن هذه التقسيمات والتفريعات ما هي إلا تقسيمات إجرائية تعليمية لزيادة البيان، وتؤول في نهاية المطاف إلى وجود حالة من هزيمة الذات أمام خصمها، أما الهزيمة فلا تتعدى قسمين: مادي ومعنوي، وما الأنواع الأخرى إلا صور ومظاهر للهزيمة بشكل عام، وترتبط بينها ارتباطاً عضوياً، وقد يتسبب الانهزام الفكري في إفراز أنواع أخرى من الهزائم، لذلك فالهزيمة قادرة على تفريغ وتوليد أنواع أخرى من الهزائم، وتكون قابلةً للتمدد والتوسع والتوالد لتشمل قطاعات ومجالات أخرى إذا لم تُتدارك الأخطاء وتُصحَّح الهفوات، وتُحاصر الأزمة في بدايتها.

## المبحث الرابع

### تاريخ الهزيمة النفسية للأمة

يمكن رصد تطور تسلسل فكرة الهزيمة في الأمة، ونمو مرض الهزيمة النفسية في الأمة عبر مراحل زمنية متدرجة ومتفاوتة في الحجم والخطورة تمتد إلى فجر تاريخ الأمة، غير أن المقال سيقف عند المرحلة التاريخية الحديثة والمعاصرة لكونها أقرب إلى الواقعية وكون جروحها لا تزال حية تندمل، ولأن مرض الهزيمة الحضارية للأمة استشرى في هذه المرحلة بالذات، خاصة قبيل المرحلة الاستعمارية وخلالها وفي مرحلة الاستقلالات الوطنية للدول الإسلامية، ثم مرحلة العولمة الأخيرة، فكيف ذلك؟

#### ١ - مرحلة ما قبل الاستعمار:

تجلت الهزيمة النفسية في الأمة فيما سادها من ضعف عام سياسياً وفكرياً واقتصادياً وعسكرياً، وكان من أهم تجليات الهزيمة النفسية انتشارُ فكر الإرجاء والبدع والخرافات، وفكر التواكل، والانغماس في الملذات، وقد كان لجهود زعماء الإصلاح في استعادة الأمة وغيها بذاتها وقوتها أثر كبير في ظهور فكر الصحوة، ومعالم النهضة، فمنهم من اتجه إلى إحياء العقيدة في النفوس واستقامة السلوك على ذلك ومحاربة ما علق بالأمة عبر تاريخها من انحرافات التصور والسلوك (مدرسة محمد بن عبد الوهاب)، ومنهم من انصرف إلى إصلاح السياسة وإيقاظ الهمم (الأفغاني، الكواكبي، شكيب أرسلان...)، ومنهم من انصرف إلى بعث الحركة العلمية في الأمة وإصلاح التعليم ومناهجه ومضامينه (محمد عبده وغيره)،...



وقد أثمرت هذه الجهود على اختلاف مناهجها في مجملها بعثا إسلاميا أخرج قسطا كبيرا من الأمة من اضطرابها النفسي وعمائها الفكري والسلوكي.

## ٢ - مرحلة الاستعمار:

تميّزت هذه المرحلة باحتلال مناطق العالم الإسلامي احتلالا عسكريا. الأمر الذي يعني أن الأمة غُلبت على أمرها ماديا وهُزمت عسكريا، تلك الهزيمة التي تجلّت في تحكّم المستعمر في التصرف في الثروات واستغلال خيرات الأمة ومقدّرات الطبيعية (فلاحية ومعدينية وتجارية..)، وفي تدبير الشأن السياسي والعسكري والاجتماعي، وتشريع القوانين الوضعية والتحاكم إليها بدل الشريعة الإسلامية في كثير من المجالات خاصة السياسية والاقتصاد، وإنشاء المدارس الأجنبية والبعثات التعليمية والأحزاب والجمعيات الحاملة للمشروع الغربي.

وتعتبر المرحلة الاستعمارية من أخطر المراحل التاريخية الحديثة والمعاصرة التي ألحقت بالأمة شتى أنواع الهزائم المادية والمعنوية، الفكرية والنفسية، ففيها تمّ زرع بذور كلّ ما ظهر من مظاهر الغزو الفكري والسياسي والقانوني والاقتصادي والاجتماعي، والعقدي والسلوكي. وكل أنواع التحلل من الدين والتمرد عليه، وفيها استُنبتت كل النباتات الطفيلية التي اعتلت بسرعة وعناية وآتت أكلها ضد جسم الأمة في مرحلة الاستقلالات الوطنية.

وهنا لا بد من التنويه - من باب الشهادة لله والتاريخ - بجهود الأمة في مقاومة هذا الغزو وأبعاده، وقد هيا الله تعالى لهذه المرحلة التاريخية العصبية عُصبة من أهل النفوس والمال والعلم والعمل من العلماء والمصلحين والمجاهدين أدوا الذي كان عليهم من واجب الوقت دفاعا عن الأمة وبثا

للعوي بفقهِ المرحلة ومخاطرها، وقد كان لجهودهم أثر ملحوظ في الحفاظ على هوية الأمة وتحقيق قدرٍ من التوازن النفسي للأمة إلا أن الهجمة الاستعمارية كانت أقوى، والإرث التاريخي من الجهل والأمية والفقر كان أثقل، فقلل ذلك من جهودهم، أضف إلى ذلك أن المستعمر استولى على مواطن القوة في الأمة (الاقتصاد، السياسة، والفكر، والتعليم، والإعلام..)، وتمكّن من اختراق الأمة والتوغل في أغلب مفاصلها الحيوية فدبّ - بسبب ذلك - قدرٌ كبير من الهزيمة النفسية والثقافية لدى فئات كثيرة من الأمة، خاصة من أهل العلم والثقافة والفكر والدعوة والتربية، ومع ذلك ظلّت الأمة بخير وعافية، وبقيت أجزاء منها سليمة معافاة بقدر معين.

### ٣ - مرحلة ما بعد الاستعمار

إذا كان المرحلة الاستعمارية مرحلة التفوق العسكري والثقافي فإن مرحلة ما بعد الاستعمار طبعها غلبة المشروع الثقافي الاستعماري الذي أكمل المشروع العسكري واستكمل خطواته وحقق أهدافه في الإجهاز على الأمة وتعطيل أجهزتها الدفاعية والمناعية، على مستويات عدة:

#### ٣-١ - على المستوى السياسي:

- تفكيك وحدة المسلمين وتعميق الفرقة والاختلاف: تمكّن الاستعمار من تفكيك الوحدة الإسلامية وإلغاء الخلافة الإسلامية التي كانت ممثلة في الخلافة العثمانية، وأقام بدلها أنظمة قُطرية إما على أساس قومي أو عرقي (كُردي / عربي / أمازيغي / أفريقي) أو ديني (مسيحي / يهودي / مسلم) أو سياسي (ليبرالي / اشتراكي) أو خليط من كل ذلك... وأقام بينها حدوداً غير مسلّمة وغير معترف بها تمام الاعتراف بين الجيران، «تحوّلت فيما بعد إلى

قنابل موقوتة»<sup>(١)</sup>، وبذلك أبقى فتيل الحرب مشتعلًا بين الإخوة، أو قابلاً للاشتعال في كل لحظة، وأبقى المفتت قابلاً لمزيد من التفجيت، فكان ذلك عاملاً باعداً بين المسلمين وطموحهم في الوحدة والاجتماع على كلمة سواء، فتسرّبت إلى نفوس فئات عريضة من الأمة الهزيمة النفسية والشعور بالعجز عن تحقيق الوحدة، وبدا تحقيقها مستبعداً إن لم يكن مستحيلاً في المدى القريب، وحتى في مستوى التحالفات والاتحادات المحلية والإقليمية، وما أصبح يشهده العالم العربي والإسلامي من حروب داخلية وتدخلات دولية وحروب عسكرية ونفسية لها آثار نفسية خطيرة عديدة كالشعور بالخوف والضياع وفقدان الهوية وتهديد الحياة والقلق على المستقبل. كما يؤدي إلى أزمات نفسية ومزاجية وجسمية تصيب الأفراد بالاضطراب والقلق والتوتر<sup>(٢)</sup>.

- إرساء دعائم الدولة الحديثة في كل قطر، خاصة في جانبها السياسي والاقتصادي والقانوني والتعليمي والإعلامي والتمكين للأحزاب والهيئات والمنظمات السياسية الحاملة للمشروع السياسي الغربي (أحزاب، وهيئات حقوقية، وجمعيات المجتمع المدني، والجمعيات النسوية)، حيث استهدف الفصل بين الدين والدولة، وبين الشريعة الإسلامية والحياة، وأسندت المناصب ومراكز القرار للفئات المثقفة التي تكوّنت في المدارس الغربية أو في المدارس التي أنشأها الاستعمار أو أنشأتها الدولة المستقلة على المقاس الغربي لاستكمال مشروع تغريب الأمة.

(١) الجوانب النفسية للحدود: مصطفى أحمد تركي، مقال بمجلة عالم الفكر. المجلد ٣٢، العدد ٤، ٢٠٠٤، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ص ١٠١.

(٢) الجوانب النفسية للحدود. م. س. ص. ١١٥.

- إرساء نموذج للديمقراطية المحلية والدولية مزدوجة المعايير، ديمقراطية تقوم على النموذج العلماني الغربي في صورته التقليدية العمياء المشحونة بعناصر العداة للإسلام عامة و«الإسلام السياسي» خاصة، ومشحونة بروح الإقصاء والاستئصال للنموذج الثقافي الإسلامي ورموزه الثقافية وأحكام الشريعة القطعية.

### ٣-٢- على مستوى الاقتصاد والاقتصاد السياسي:

تم تأسيس اقتصاد جديد قائم على أسس الاقتصاد الغربي القائم على المعاملات الربوية والقيم الجشعة والاحتكار والاستغلال، وأقصيت الشريعة من كل مجال اقتصادي، فأضعفت البلاد وازدادت تهميش الثقافة الإسلامية.

### ٣-٣- على المستوى التعليمي

تم إرساء نظام تعليمي حديث وحداثي تقوم أسسه على الرؤية العلمانية والحداثية للكون والحياة والدين، رؤية تؤسس للنزعة المادية للحياة بكل أبعادها، وفضل العلوم الإسلامية والشرعية عن العلوم الدنيوية، وفضل الأخلاق عن العلم، وتنشئة العقول الإسلامية على التطبيع مع القيم المادية والنفعية والإباحية للفكر الغربي، مما جعل التعليم قناة للغسل البطيء للأدمغة من الثقافة الذاتية ووسيلة لتزييف الوعي والتاريخ والتراث والمستقبل، وبسبب ذلك تم التمكين للنخب التغريبية من تدبير الشأن التعليمي على المقاس الحداثي الغربي، وإخضاع التعليم للإصلاح متى ما اقتضت المصلحة الدولية ذلك، تحت أغطية ومبررات اقتصادية تارة، وتحت مسوغات الحرب على الإرهاب تارة أخرى.

## ٣-٤ - على المستوى الإعلامي

إرساء منظومة إعلامية على غرار النظام التعليمي ذات وظيفة مزدوجة: الترويج للثقافة الغربية بقيمتها ومفاهيمها ورموزها ومنهجها والتمكين لها فكريا وسلوكيا ووجدانا، ثم ترقية الثقافة الإسلامية وطمس معالمها الجوهرية طمسا يُلغي حقيقتها الإنسانية وأبعادها القانونية والاجتماعية والسياسية، وفي المقابل الترويج لإسلام فارغ المحتوى تزييني للفيسفساء التاريخي لا غير.

## ٣-٥ - على المستوى الاجتماعي:

أسهمت المستويات السابقة في إحداث آثار عميقة وتحوّلات كبيرة في المجتمع المسلم وقيمه العقديّة والسلوكية وأنماط عيشه، حيث تم إعادة تشكيل المجتمع المسلم وقيمه في التعامل الفردي والأسري والاجتماعي، وسادت قيم المجتمع الغربي من الاستهلاك والفرذانية والأنانية، كما سادت قيم الجشع والذرائعية، وقيم الإباحية والشهوات، وانهمز المجتمع أمام النموذج الغربي للمرأة<sup>(١)</sup> ووظيفتها الحيوية والاجتماعية والاقتصادية، الذي أريد له أن يعولم.

(١) يقول الدكتور فريد الأنصاري: «لقد استُغل السلاح النسوي استغلالا خطيرا، في إعادة صياغة الأسرة؛ وفق المقياس الأوروبي وقيمه الحضارية، ونقض أصول بناء الأسرة في القرآن بالتدريج. كل ذلك يحصل اليوم من خلال وسائل من أخطرها التطبيع على تداول الصورة العارية كموضة متحركة في بنية المجتمع العربي والإسلامي» كتاب سيمياء المرأة في الإسلام. نسخة إلكترونية على موقع الفطرية (موقع خاص به)، وكتاب الفجور السياسي له أيضا، كما اعتبر الحرب على المرأة حرب عقديّة وحرب حضارية: «ومن هنا يتبين مدى الخطر الذي تؤدي إليه (حركة التعري) من تدمير عقدي للإسلام! كما سترى بحول الله. إن واقع الأمة اليوم، في هذا المقتل الجوهرية على جانب من الخطر عظيم. فلقد رأينا أن قضية اللباس بما ترمز إليه من دلالات سيميائية؛ هي حرب حضارية تشن على الإسلام؛ لتدمير مواقعه الوجدانية في بنية التدين الاجتماعي» كتاب سيمياء المرأة في الإسلام.

وفي المقابل تم فضل الفرد المسلم عن قيمه الإسلامية وفضل قيمه عنه، وتصويرها على أساس أنها مجرد تقاليد تاريخية متجاوزة وأنها لا تساير العصر، ولا يمكنها أن تقف في وجه الحقوق الكونية والتشريعات الدولية.

ومما سبق يتبين لنا أن الهزيمة النفسية للإنسان والأمة المسلمة تكونت عبر مراحل زمنية طويلة تراكمت فيها الإخفاقات، وتوالت الابتلاءات، وتكاثرت طواير المنهزمين المزدحمين على أبواب اليأس والقنوط، والاضطراب والحيرة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتدت الهزيمة إلى أن صارت واقعا مبررا ومسوغا يحمل وزر الدعوة إليه فنام من الناس، تولت كبر التئيس والتقنيط والتشكيك نيابة عن الخصوم، وهذا الصنف من أشبع صور الهزيمة وأشنع.

وأمام هذه التطورات التي لحقت الأمة بعد استقلال البلدان الإسلامية وغلبة الاتجاه التغريبي غلبة تمكّن فيها من مراكز القرار تفكيراً وتعبيراً وتدبيراً، تسلل الضعف إلى ضعاف النفوس وهم أصناف ثلاثة: صنف صار مقلدا للغرب الأقوى عن وعي أحياناً، وعن غير وعي أحياناً أخرى، مستلباً في فكره وسلوكه وتعبيره، حاملاً للمشروع التغريبي مدافعاً، وصنف انزلق منهزماً أمام الشهوات وأصبح يشكّل الطابور الخامس الذي لا يُحتاج إليه إلا للتصويت والاستهلاك، وصنف ثالث انزلق منهزماً أمام شبهات التأويل مشكلاً تيار الغلو والتطرف والمغالاة في الدين إما في اتجاه الإرجاء والتسليم بالقدر، وإما في اتجاه الروحانية المغرقة في دعاوى التصوف، وإما في اتجاه أغرم أصحابه بفكرة الجهاد وتأولها، وأغرق في التكفير والخروج غير الحكيم المبني على مجرد ردود أفعال غير موزونة شرعاً وواقعاً، فجّر ذلك على الأمة ويلات التدخل الأجنبي، وأجج حالة الاستعداد الداخلي والخارجي.

وكل صنف من هذه الأصناف خدّم المشروع التغريبي وأسهم في هزيمة من حيث يشعر أو لا يشعر.

## المبحث الخامس

### أسباب الهزيمة النفسية

يمكن إرجاع أهم أسبابها - رغم صعوبة ذلك - إلى: أسباب ذاتية داخلية، وإلى أسباب خارجية، ويدخل تحت كل نوع أسباب فرعية وجزئية.

كيف ذلك؟ وما طبيعة كل عامل؟ وما حجم وقوة تأثيره؟

#### ١ - أسباب ذاتية داخلية:

يمكن أن نقف هنا على جملة أسباب ترجع إلى ما هو داخلي وذاتي، ومن ذلك:

#### ١-١ - ضعف الإيمان واختلاطه وفساد السلوك واختلاله:

إذ أن سلامة السلوك من سلامة العقيدة والإيمان، واستقامة التصرف من صحة التصور. ولذلك عندما ينهزم المسلم عقدياً فإنه بالتبع ينهزم سلوكياً، وعندما يسقط جدار الإيمان يتهاوى جدار الأعمال، ولا يعني فساد السلوك وانحرافه إلا اختلال الاعتقاد في الله جل وعلا، وسوء الفهم عن الله واختلاطه بالأهواء والشبهات.

إن كل ضعف عن الامتثال للشرع يُفضي إلى المعصية، ولا تكون المعصية في جوهرها إلا هزيمة في مقاومة الشيطان وإغراءاته، وطاعة للكفر وأعدائه، وخذلانا للحق وأنصاره، يقول ابن تيمية رحمته الله: «وحيث ظهر الكفار، فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله، وإذا كان في المسلمين ضعف وكان عدوهم مستظهِراً عليهم، كان ذلك لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود

باطناً وظاهراً»<sup>(١)</sup>. والله درّ ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ حين شخّص سبب الهزيمة وردّها إلى الشبهة أو الشهوة فقال رَحِمَهُ اللهُ: «الفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحدهما.

فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى...

هذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع<sup>(٢)</sup> على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال، وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع. فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة، ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دقّ الدين وجلّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام.

أما النوع الثاني من الفتنة ففتنة الشهوات: وقد جمّع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]، أي تمتعوا بنصيبيهم من الدنيا

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد، ٦/٤٥٠، ط. ١، ١٤١٤هـ، الناشر دار العاصمة - الرياض.

(٢) البدعة في الدين لها مظهران متلازمان: عقدي وسلوكي، سببه سوء الفهم عن الله تعالى وسوء التصرف بالخروج عما اقتضاه شرع الله إلى ما اقتضاه سوء الفهم والتأويل، ولا يمكن الفصل بينهما، كما لا يفصل بين العلة ومعلولها.



وشهواتها والخلاق هو النصيب المقدّر، ثم قال: ﴿وَحُضِّمُ كَالَّذِي خَاضُوا﴾<sup>(١)</sup> فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات؛ فأشار - سبحانه - في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل وتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق العمل، فالأول: فساد من جهة الشبهات، والثاني: من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه»، وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»، وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل؛ فالأول: أصل فتنة الشبهة. والثاني أصل فتنة الشهوة<sup>(١)</sup>.

#### ١-٢- الفرقة والاختلاف المذموم:

أصبحت الأمة الإسلامية المعاصرة بنوعين من التفرق: تفرق جغرافي، وتفرق فكري ثقافي، فالأول أقام الحدود بين مناطق العالم الإسلامي ودوله، وباعد بينها وبين حُلْم وحدتها الجغرافية والإقليمية، والثاني ثقافي وهو أخطر من الأول فقد جعل الأمة أشدّ فرقة مما كانت عليه في الماضي، تلك الفرقة التي أدت إلى انقسام المسلمين ثقافياً إلى تيار الأصالة الحامل لمشروع إسلامي، وتيار التغريب الحامل لمشروع الفكر الغربي، وازداد الصف الإسلامي انقساماً إلى أحزاب وكتل ومدارس فكرية وسياسية ومذهبية (فقهية وعقدية) داخل البلد الواحد في الغايات والوسائل ومناهج العمل والإصلاح لا يكاد يوحد بينها إلا الاختلاف من أجل الاختلاف، وإرادة الإقصاء والتنافي، وقد امتدّت هذه

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان - ج ٢ / ١٦٠ - ١٦٢.

الفرقة إلى كل قطاعات الأمة عمودياً وأفقيًا، داخليًا ومحليًا وإقليميًا. وأمام هذا التفرق الشامل والقابلية للتمزق الكامل بُعدت الشُّقَّة وتعمّقت هُوةُ الفُرقة، وتسرّب اليأس إلى كثير من النفوس من ائتلاف إسلامي - بله وحدة إسلامية - تستبشر به النفوس وتُرفع به الهمم والرؤوس، ويُدفع به الذل والهوان عن الرئيس والمرؤوس.

### ١-٣- ضعف ملكة الاجتهاد وانتشار التقليد والتعصب:

ذلك أن القوة العلمية من أقوى العوامل لدرء آفة الضعف المادي والمعنوي، فمن شأن الاجتهاد أن يساعد الأمة في إيجاد الحلول الشرعية لجميع مشكلاتها ومعضلاتها الفكرية والواقعية والتربوية، وإن القوة العلمية من أقوى عوامل النصر والتمكين وجلب المصالح ودرء المفاسد.

وإن الأمة التي يكثر فيها العلماء الربانيون والمجتهدون لا تقلّ انزلاقاتها الحضارية فحسب وإنما تترقى في مدارج الولاية الربانية والتمكين.

ولقد أصيبت الأمة بداء التراجع الحضاري والنكسة النفسية أمام خصومها يوم استقال العقل المسلم عن مهامه في الاجتهاد ومواكبة مستجدات الواقع، والبحث عن حلول لتحديات المرحلة، وانصرف عن الانشغال بواجب الوقت. فمال الناس إلى التقليد والتعصب لما في أيديهم من المذاهب. فقلّ العلم وكثُر التنافر، وشاعت البغضاء والتنافر، واتسع الخلاف والتغاير، وسرى فيها الضعف والضعف، فتوالت عليها النكبات دون أن تقتدر على الاجتهاد في حل المعضلات فتكالب عليها الأمم كما في حديث النبي ﷺ، حتى بدا لكثير من الناس أنه لا مفرّ من الاستجداء بالغرب في كل معضلة من المعضلات، ودبّ اليأس من قدرة العقل المسلم على معالجة ما لديه من مشكلات.

## ١-٤ - الرواسب التاريخية السلبية: (التأويل المنحرف، والاستبداد..)

لعل من بين أسباب هزيمة الأمة حضاريا والتي أثرت في إحداث أزمة نفسية لدى المسلم مع ذاته وهزيمته أمام عدوه؛ مخلفات ورواسب تاريخية عديدة يمكن الوقوف على اثنين منهما:

**الأول:** رواسب التأويل المنحرف الذي قاد إلى ظهور بدعة التفرق المذموم، فالتأويل المنحرف دليل وأمانة على تسرّب الأهواء إلى النفوس وتذرّعها إلى التحلل من تكاليف الشرع، كما أنه قد يصير عاملاً كافياً للانحراف العقدي أوّلا (حالة الخوارج والمرجئة والمعتلة والباطنية..). ثم السلوكي ثانياً. ومع توالي الأيام والسنين اتسع الخرق على الراقع، ودبّ اليأس إلى كثير من النفوس في حلّ هذه المعضلة.

**والثاني:** رواسب الاستبداد وفساد نُظُم الحكم والتدبير الفردي والأسري والجماعي التي وأدت إبداعات شتى، وأجهضت أحلاما ومشاريع، وأنجبت نفوساً مريضة تقبل الاستسلام والخضوع، وتُشبع الذات جلدا ومقتا. وتعبّر عن نفسها بسلوكيات التمرد والتنكّر والخروج عن الملة عقداً وشرعاً، والانبهار بما عند الغرب من أسباب العيش الرغيد والتفوق المادي والعلمي.

## ١-٥ - فشل مشاريع الإصلاح والنهوض في تحقيق مقاصدها وغاياتها:

كان لفشل كثير من مشاريع النهوض الإسلامي المعاصر وإخفاقاته في تحرير المسلم المعاصر تحريراً تاماً من الهيمنة المجحفة للغرب على بلدانه بخيراته المادية والبشرية أثره السلبي في تسرّب كثير من مقادير اليأس والإحباط إلى نفوس المسلمين، مما أنتج حالة من اليأس والتذمر لدى كثير من الشباب، بل نتج عنه أحيانا حالة من الانتحار العقدي والارتداء في خدمة مشاريع تغريبية

معادية للإسلام والمسلمين، وأورث كل هذا حالةً من اهتزاز الثقة في الذات وقدرتها على الخروج من هيمنة ما هو غربي وصار «من التحديات الكبيرة التي تواجه شباب الإسلام اليوم هو تحدي التئیس من أي عمل إسلامي يسوق إلى العز ويقود إلى النصر، هذه الظاهرة من اليأس والقنوط إذا استفحلت في أمة، وترسّخت في نفس الشباب، ورجال الدعوة والإصلاح، فإنها في الحقيقة القاصمة التي تقصم مسيرة العمل الإسلامي وتشلّه، والحالقة التي تحلق التفاؤل بالنصر وتقتله، فلم يبق لإقامة العزة الإسلامية أمل، ولم يعد لاستعادة الأمجاد التاريخية في الأذهان أمل»<sup>(١)</sup>.

#### ١-٦- ازدياد الانبهار بالغرب والقابلية للتبعية:

أثبتت تجربة احتكاك المسلمين بالغرب تكرارَ حالة الانبهار بالغرب ومنجزاته المدنية المادية والثقافية، فمنذ اكتشاف المسلمين لقوة الغرب من خلال الحركات الاستعمارية وحملة نابليون على مصر والحروب العثمانية مع الدول الأوروبية، حصلت للإنسان المسلم دهشةٌ وانبهار لم يسلم منها الخاصة، بله العامة، تلك الدهشة أورثت حيرة واضطراباً لدى المثقفين «فكان لذلك أثر خطير على نفسية كثير من أبناء الأمة من الانبهار بالفكر والحضارة الغربية ومن الاستلاب والهزيمة الفكرية والنفسية أمام المنتج الحضاري الغربي، فسبب ذلك انتشار أفكار اليأس والتئیس من اللحاق بالغرب، بله سبقه»<sup>(٢)</sup> وكان من

(١) الشباب المسلم في مواجهة التحديات: عبد الله ناصح علوان، ص. ٢٥٧، ط. ٢، ١٤٠٦هـ/

٢٠٠٦، دار السلام، القاهرة مصر.

(٢) فقه السنن الإلهية وشروط الشهود الحضاري: الطيب الوزاني، ص ٩٠، ط. ١٤٣٥هـ/

٢٠١٤م، مطبعة أنفو برانت فاس المغرب

آثار هذا الانهزام: استحسان كثير من مظاهر الحياة الغربية في الفكر والسلوك والتدبير، وظلّت تلك الدهشة تنمو مع توالي الأجيال وتوسع دائرتها حتى أفرزت جيلا مسالما للغرب حاملا مشروعه التغريبي، منافحا عنه لا يرى الحلول الممكنة إلا في مسايرة الغرب واقتفاء خطواته في تقدّمه وفي صراعه مع الدين ونبد القيم الدينية والخُلُقِية واعتبارها عاملا للتخلّف. فالانبهار والدهشة لا يولدان إلا اليأس، وهذا لا يَنْتُج عنه إلا الاستسلام، والاستسلام أكبر هزيمة نفسية يمكن أن تُصيب المسلم ويفرّح بها العدو.

## ٢ - أسباب خارجية:

ومن أبرز هذه العوامل:

### ٢-١ - الإرث الثقيل لمسلسل الهزائم في المعركة مع الغرب:

عندما ينظر المسلم المعاصر إلى تاريخه الحديث يلاحظ أنه تاريخ الهزائم مع الغرب في كل مجال وقّع فيه الصدام خاصة المجال العسكري، ورغم أن الشعوب الإسلامية استطاعت أن تلحق بالاستعمار هزائم وخسائر كبيرة إلا أن خسارة المسلمين كانت أكبر، ورغم أن المسلمين استطاعوا المقاومة والثبات والحفاظ على الهوية حية، والإبقاء على المعنويات عالية، واستطاعوا في ظل كل القيود أن يتعايشوا مع الواقع ويحافظوا على كثير من مظاهر الحياة الإسلامية ويتطلّعوا إلى تحقيق المزيد من المكتسبات إلا أنها إذا قورنت بحجم ما حصل من الهزيمة المعنوية وحجم اختراق الصف المسلم نفسياً وفكرياً في العقيدة والثقافة وفي التشريع والتدبير... يبدو فعلا أن الغرب تمكّن من تحقيق انتصارات كبرى، كان لها أثر كبير في إصابة عدد لا بأس به من المسلمين بالإحباط واليأس والارتداء في أحضان المشروع الغربي لنجاحه وقلة التكاليف في حملته.

وإن قراءة التاريخ الحديث لحركات الإصلاح الإسلامي - بدءاً من القضاء على حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب من قبل جيش محمد علي باشا في القرن الثاني عشر الهجري وبداية القرن التاسع عشر الميلادي (خاصة مرحلة ما بين ١٨١٢م و١٨١٨م) وصولاً إلى اللحظة الراهنة في «الربيع العربي» وما بعده<sup>(١)</sup> - توقُّفنا على الدور الكبير الذي قام به الغرب للقضاء على كل حركة إحيائية وتصحيحية، وإن العدد الكبير من هذه الهزائم وثقل أثره في الأمة يبعث في نفوس البعض الإحباط واليأس ويقتل فيهم كل أمل للعودة للحياة الإسلامية واسترجاع الأمجاد التاريخية.

٢-٢- ثقل التدخل الأجنبي وقوة هيمنته وازدياد تحكّمه في مصير البلدان الإسلامية:

منذ اكتشاف أهمية العالم الإسلامي قبيل الاستعمار وبعده (المرحلة الحديثة على الأقل) أصبح التدخل الأجنبي في الشأن الداخلي للأمة الإسلامية ودولها قويا ، وازداد في المرحلة المعاصرة لما أصبح العالم الإسلامي منطقة «جيوبوليتيكية» ذات أهمية دقيقة في السياسة الدولية عالمياً اعتباراً لموقعها الجغرافي ولأهميتها الاقتصادية والبشرية ، ولكونها تحتضن حضارة شكّلت

(١) يلاحظ في التاريخ الحديث أن جميع الحركات الإصلاحية وحركات التحرر التي عرفها العالم العربي الإسلامي وكانت تهدف إلى بعث الأمة بعثاً جاداً وتحمل مشاريع إصلاحية أصيلة، لقيت عنفاً شديداً من قبل الغرب وتم القضاء عليها بأشكال من القضاء المادي والمعنوي، المباشر وغير المباشر، وقد تحالفت الدول الغربية في كل مرة مع حلفائها المحليين في القضاء على هذه الحركات، ويمكن أن يكون هذا مجال بحوث ودراسات متخصصة ومستوعبة وعميقة تبين أشكال التدافع وأسبابه وخطورته في المرحلة المعاصرة لتكوين رؤية مستقبلية بانية تقي الأمة من هذه العثرات.

ولا تزال الحضارة ذات الأبعاد الإنسانية والغايات السامية في إقامة العدل والرحمة عالميا.

واعتبارا لهذه الأهمية وبسبب الضعف الحضاري الذي آل إليه العالم الإسلامي فقد تكالبت عليه الأمم كما أخبر الحبيب المصطفى ﷺ حين قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قلنا: أو من قلة بنا يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكن تكونوا غناء كغناء السيل ولينزعن الله المهابة من صدور عدوكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قلنا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت»<sup>(١)</sup>.

وبعد معاهدة «سايكس بيكو» إلى الآن أصبح التدخل الأجنبي قويا، ولم يعد ممكناً رسم أي سياسة داخلية في أي بلد إسلامي دون تدخل دولي فيها، سواء أكانت توجّها في الحكم أو الاقتصاد أو التعليم أو التشريع أو الإعلام...، وأصبح كثير من الخبراء في مجال العلاقات الدولية يتحدثون عن انتهاء صلاحية سايس بيكو الأولى، وبداية ملامح سايس بيكو ثانية في نسختها الجديدة لإعادة تفتيت المفتت، وتقسيم المقسّم، وإضعاف الضعيف، الأمر الذي ولّد لدى بعض رجال الفكر والإصلاح قدرا كبيرا من التوجس على المشاريع الحقيقية للأمم، وبعث في كثير من النفوس قدرا من الإحباط والخنوع والرضى بالواقع وتبريره.

## ٢-٣- آثار العولمة:

لعل الحديث عن العولمة لا يستقلّ عن الحديث عن التفاعل والتدافع الدولي. ذلك التدافع الذي تطوّر عبر مراحل تاريخية، واتخذ شكله بحسب

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٧٨، جامع الأصول ١٠/٢٨، كتاب الفتنة والأهواء رقم ٧٤٨١،

طبعة (٢) سنة ١٣٩٨ هـ.

المرحلة والمجال الذي يُنقل عبره (عسكري / سياسي / اقتصادي / ثقافي..)، وأصبحت العولمة التعبير المرحلي المعاصر عن إرادة الهيمنة الغربية على العالم؛ هيمنة عسكرية أحياناً (الاستعمار/ التدخل العسكري/ القواعد العسكرية والاستخباراتية) أو اقتصادية وهي الصورة الأشهر والأكثر شيوعاً والتي من خلالها ظهر المصطلح، ويقوم هذا النوع على «حرية انتقال حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية»<sup>(١)</sup>.

ونظراً لكون أهداف العولمة الاقتصادية هي فتح أسواق الدول الضعيفة أمام الاقتصادات الكبرى عبر اتفاقيات تراعى فيها مصالح الأقوياء أكثر، فقد اعتبر كثير من الباحثين العولمة نوعاً من الاستعمار الجديد فهذا الدكتور سعد البازعي يقول: «العولمة هي الاستعمار بثوب جديد، ثوب تشكّله المصالح الاقتصادية ويحمل قيمة تدعم انتشار تلك المصالح وترسخها، إنها الاستعمار بلا هيمنة سياسية مباشرة أو مخالباً عسكرية واضحة»<sup>(٢)</sup>.

ورغم أن العولمة ذات طابع اقتصادي إلا أنها «فرضت نفسها على الحياة المعاصرة، على العديد من المستويات، سياسياً واقتصادياً، فكرياً وعلمياً،

(١) ينظر في تعريف العولمة الاقتصادية وآلياتها ومخاطرها مثلاً المراجع التالية:

- العولمة الاقتصادية من منظور إسلامي: د. عبد الله بن حسين الموجان، طبعة ١، ١٤٢٥هـ/

٢٠٠٤م، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، مكة المكرمة

- العولمة ما لها وما عليها: د. محمد عبد الفتاح حاتم.

(٢) المثقفون والعولمة والضرورة والضرر: د. سعد البازعي، مقال ضمن كتاب نحن والعولمة

من يربّي الآخر، سلسلة كتاب المعرفة، ع. ٧، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، ص: ٧٣.



ثقافياً وإعلامياً، تربوياً وتعليمياً»<sup>(١)</sup>، وبذلك أصبح كثير من الخبراء يتحدث عن العولمة الثقافية<sup>(٢)</sup>، وهي النوع الأشرس والأخطر، وهو يماثل مفهوم الغزو الثقافي، بل أصبح يقوم مقامه وينوب منابه ويسد مسدّه، هذا الوجه الثقافي هو الذي دفع إلى الحديث عن المخاطر التي غدت تهدد الهويات والخصوصيات: الدينية واللغوية والثقافية والتعليمية والاجتماعية للشعوب والحضارات، إنها تعميم التصور الإيديولوجي الغربي وعولمته عالمياً و«فرض قيمه الاجتماعية والثقافية وعولمتها، والتي تمثل أسوأ ما عنده، بينما لا يسعى إلى عولمة العلم والتقدم حيث يجب الاحتفاظ به»<sup>(٣)</sup>.

(١) أبو زعرور: محمد سعيد، العولمة، دار البيارق - عمان، الأردن، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص ١٣، والعولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي التويجري (عبد العزيز بن عثمان)، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) الرياض. موقع إيسيسكو بعنوان: [www.isesco.org.ma/arabic](http://www.isesco.org.ma/arabic)

(٢) ينظر في العولمة الثقافية وآثارها مثلاً: العولمة الثقافية آثارها وأساليب مواجهتها: الدكتور صالح حسين سليمان الرقب، نشر في كتاب مؤتمر: (العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الثقافي والاقتصادي)، عمان - الأردن سنة ٢٠٠٨ م

(٣) العولمة الثقافية وأثرها على الهوية: خالد بن عبد الله القاسم (أستاذ مشارك بكلية التربية - جامعة الملك سعود الرياض). موقع رياض العلم: [http://riyadhalelm.com/play-](http://riyadhalelm.com/play-11097.html)

## المبحث السادس

### آثار الهزيمة النفسية على الأمة

إن الهزيمة النفسية تشل الفكر والسلوك وتعطل حركة الجسم ويغيب معها الأمل، بينما الهزيمة العسكرية قد تكون ظرفية وجزئية، وإذا وجدت نفوسا كبارا فإنها تتحول إلى عامل قوة ونصر (نموذج قصة الإسكندر المقدوني مع النملة، ونموذج قصة الشعب الألماني في الحرب العالمية الأولى والشعب الياباني والفيتنامي وغيرها من الشعوب)، لذا فآثار الهزيمة النفسية يكون أعمق وأدوم وأخفى وأعقد.

يقول الدكتور د. محمد حسن بخيت: «إن الهزيمة النفسية تفوق بكثير في آثارها ونتائجها الهزيمة العسكرية، لأن الهزيمة العسكرية قد تتحول إلى نصرٍ يوم أن تنطلق الإرادة لتواجه التحدي، لكن الهزيمة النفسية تظل تقيّد إرادة الإنسان، وتعطل قدرته على المقاومة، وتدفعه للشعور بالإحباط لتقضي على أي أمل للإصلاح، وبدلاً من أن يبحث عن أي سبيل للخروج من الأزمة يكتفي المحبّط بالعويل والصراخ، وأن لا مجال للخروج من الأزمة إلا بالاستسلام والرضا بالواقع»<sup>(١)</sup>.

فما هي آثار الهزيمة النفسية على الفرد والأمة؟

(١) فكر الهزيمة: خطره وسبل مواجهته: د محمد حسن بخيت، بحث مقدم إلى مؤتمر «الإسلام والتحديات المعاصرة» المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية في الفترة: ٢-٢٠٠٧م.

## ١ - على المستوى الثقافي والفكري (العقدي):

حيث تعددت المذاهب والأفكار الغربية في بلاد المسلمين والتي أصبح الاعتقاد والعمل بها مصادما لأصول الدين وفروعه، بل إلغاء للدين جملة وتفصيلا، وقد أصبح التهافت وراء الأفكار الغربية من قبل أبناء الأمة شائعا وذائعا، بوعي وبغير وعي، وعن اقتناع وعن غير اقتناع، ولم يُعد تأثير الثقافة الغربية في المسلم المعاصر مقتصر على جانب الفكر والاعتقاد بل امتد إلى مجال السلوك والتدبير الخاص والعام، وإلى مجال الفنون والأدب والأخلاق والذوق الخاص منه أيضا والعام، في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح والملعب.

## ٢ - على المستوى السياسي:

أصبح المجال السياسي في العالم الإسلامي مسرحا للتدخل الغربي، وأرضا مستباحة لتطبيق الفكر السياسي الغربي في نظام الحكم والعمل الحزبي والحرية السياسية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة، وأصبحت الأنظمة الحاكمة في بلداننا ومؤسساتها الحزبية وهيئاتها المدنية مُلزَمة بالعمل بالاتفاقيات الدولية المؤسَّسة على التصور الغربي للكون والحياة والإنسان، رغم مخالفة هذه الاتفاقيات للتصور الإسلامي ومصادمتها له.

الأمر الذي انعكست آثاره مباشرة وتلقائيا على النظام القانوني والاقتصادي والاجتماعي.

## ٣ - على المستوى القضائي والقانوني:

يلاحظ أن عملية إحلال القوانين الغربية والعمل بها نجح الغرب فيها منذ فترة مبكرة (قبل الاستعمار)، وأصبحت التشريعات القانونية والقضاء في العالم

الإسلامي تجري على نظام الحقوق والقوانين الغربية في مجال العقوبات والجنايات والتجارة، ولم يبق للقانون الإسلامي (أحكام الشريعة الإسلامية) إلا هامش ضيق جدا في باب الأسرة والموارث، وهو نفسه كثرت الجلبه وراءه اليوم لإلغائه أو تعديله بما يناسب المنظومة القانونية الغربية.

#### ٤ - على المستوى الاقتصادي:

هذا المستوى أفلت بدوره من يد الأمة ولحقتها الهزيمة في الأخذ بزمامه، فالنظام الاقتصادي بنظمه التشريعية والإدارية وأنماط التعاملات كلها أو في أغلبها لم تعد لها صلة بالنظام الاقتصادي الإسلامي قواعد ومقاصد، إلا من جهود بدأت اليوم ترى النور في محاولة لاستعادة موقع الأمة في الإسهام في توفير ترسانة قانونية وتديرية لحل مشكلات الاقتصاد العالمي من رؤية إسلامية.

#### ٥ - على المستوى الاجتماعي

تظهر هزيمة الأمة في هذا المجال واضحة، ويظهر انكسارها أمام النموذج الغربي الذي فرض عليها أو افتتن به أبنائها جليا خاصة في الأسرة (مفهوما وعددا ووظيفة...) ومجال المرأة (حقوقا، ووظيفة) والعادات (الاحتفال بميلاد المسيح مثلا، وعادات الاحتفال بالميلاد داخل الأسرة) ومظاهر اللباس، والطبخ وعادات الأكل خارج البيت، والألعاب، وفي المقابل اختفت كثير من أنواع ومظاهر الثقافة الاجتماعية الإسلامية في المجالات التي اكتسحتها النموذج الاجتماعي الغربي.

وفي عبارة موجزة كانت آثار الهزيمة النفسية في حياة الأمة المسلمة المعاصرة كبيرة وواسعة، وآثار جرح الانكسار عميقة وماحقة، فقد ترتب عن هذه الهزيمة التمكين للمشروع الغربي في مجالين:

- في النفوس والعقول ، ففقدت الأمة ثروتها البشرية وقدرتها على الإنجاب والاستمرارية.
- وفي تدبير الشأن العام للأمم والشعوب المسلمة، فقدت الغير وفقدت ما عندها من ربه من خير.

وهكذا خلّف هذا الانهزام أمام الثقافة الغربية وراءه ضحايا من المستلبين والمهاجرين إليه عقولا وأفكارا والمنبهرين به انبهارا، ووجد وأوجد له في أوطاننا من القابليين للغسل الدماغى أعوانا وأنصارا، أما دين الإسلام وشرعه ففقد - أو كاد يفقد - المهاجرين والأنصار إلا ما أخبر به النبي العدنان ﷺ من أنه «لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

فما هي سبل علاج هذه الظاهرة الفتاكة حضارياً وثقافياً؟

(١) البخاري رقم الحديث (٣٦٤١)، ومسلم رقم الحديث ١٠٣٧، وفي رواية أخرى لمسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» حديث رقم ١٩٢٠.

## المبحث السابع

### سُبل العلاج من مرض الهزيمة النفسية

لما كانت الهزيمة شكلاً من أشكال الضعف الداخلي الذي يصيب الفرد كما يصيب الأمة، فقد وجب البحث في العلاج عما يحمي ويقي أولاً، ثم عما يقوي ويرقي ثانياً، وعما يدفع المفاسد ويجلب المصالح ثالثاً، ولما كانت الهزيمة ذات بعد نفسي فوجب علاجها من هذه الجهة ولا علاج للنفوس إلا عبر التربية. وهاهنا لا بد من اقتراح تصوّر يجمع في عناصره العلاجية بين المضمون والمنهج والوسائل والمراحل:

من حيث المضمون والمنهج: تحتاج الأمة في مرحلتها الراهنة وفي كل مرحلة إلى تبني الاختيار التربوي وتغليب كفته على باقي الاختيارات في مقاومة مشروع التغريب وآثاره النفسية، هذا الاختيار يمكن تجسيده مبادئه على الشكل التالي:

- لا نموذج أنجع من نموذج التربية، ولا نموذج تربوي حقيقي إلا إذا تأسست مادته التربوية على الوحي أساساً (قرآناً وسنة) وعلومه الخادمة له، ولا يمكن أن تكون قائمة على الوحي إلا إذا استهدت بهدي القرآن الكريم والسنة والسيرة النبويتين المطهرتين وقصدت إلى تحقيق أمرين متلازمين، وبتحقيقهما لا تتخلص الأمة من معضلات الهزيمة النفسية وأخواتها فحسب، وإنما تتحقق لها الريادة والشهود الحضاري. هذان الهدفان والمقصدان هما:

أولهما: تكوين الفرد المسلم النموذجي (المسلم الداعية إلى الله الرباني القوي المجاهد الفقيه الحكيم...) لحاجة الأمة لنموذج المسلم الرباني الذي له الإمامة العلمية والعملية، الإيمانية والخلقية، ولا سبيل للأمة للتخلص من الطابور الخامس ومن دفع القابلية للانزمام إلا بتأهيل العنصر البشري القوي

إيماناً، الصافي عقيدة، السليم سلوكاً، القادر على سد حاجة الأمة وتحقيق كفايتها في مجال الدعاة الحكماء، والعلماء الربانيين، والأئمة الراسخين في العلم والعمل، والتضحية في سائر القطاعات وجميع التخصصات وعلى صعيد كل المستويات.

يقول الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ: «إننا أيها السادة الكرام، في حاجة ماسة إلى صناعة جيل من الرواحل، جيل من الأقوياء الأمناء، لمواجهة التحديات العالمية، التي تحاصر حركة الوعي الإسلامي الحديث، في كل مكان، وتحوّل بينها وبين مقاصدها العظيمة، وتُربك مشروعها، لإعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر!

وإنها لعمري صناعة، لا تتم إلا بتكوين المسلم القرآني الذي يستمد صفاته ومواصفاته من صفات الأنبياء ومواصفاتهم، وخصائص الأولياء وربانيتهم، كما وردت بذلك نصوص القرآن والسنة الصحيحة أساساً. وهو أمر لا يتم إلا بوضع التصورات التربوية، بناء على هذا القصد، وانطلاقاً من هذا الأساس، وإخراج البرامج العملية لذلك، نصوصاً قرآنية وحديثية، وإعادة قراءة السيرة النبوية كنموذج تطبيقي، لاكتشاف سنن التربية العملية، والمعالجة التفصيلية للنفوس والأشخاص، ثم المعالجة الكلية للظروف والمواقف والمراحل»<sup>(١)</sup>.

ثانيهما: بناء الأمة المسلمة القوية الربانية المجاهدة الحكيمة والداعية إلى ربها والقائمة بأمر الدين والدنيا بكل إمكاناتها وطاقاتها ومؤسساتها السياسية والفكرية والاجتماعية والتعليمية والإعلامية والاقتصادية، وكل صفة من هذه الصفات لها مسوِّغها في الوقاية والعلاج جلباً ودرءاً.

(١) التوحيد والوساطة: فريد الأنصاري. ج ٢ الخاتمة.

ولا يتحقق هذان المقصِدان النبيلان ما لم يُبْنَ هذا المنهج التربوي على مبادئ ومقومات يمكن اعتبارها معالم ، ومن أبرز ذلك :

**المَعْلَم الأول:** رُبَط المسلم بالله تعالى ورسوله ودينه ربطاً عُمَدته التغذية بالوحي والوحي وحده، ولا غذاء إلا ما قبله الوحي وحقق معه التكامل والتعاقد والتضافر وليس التآكل والتعارض والتنافر، لأن الهزيمة النفسية أتت - من بين ما أتت منه - من اختلاط مصادر التغذية الفكرية والروحية.

**المعلّم الثاني:** تصحيح التصور والسلوك والالتزام تصحيحاً متلازماً متدرجاً يبني بعضه على بعض، فلا سلوك صحيح إلا بعد تصحيح الإيمان والتصور، ولا التزام صحيح بقضايا الأمة ما لم يسلم التصور والسلوك والإيمان والعمل، ولقد أوتيت الأمة مبكراً في تاريخها يوم ظهر فيها الإرجاء وتفاقت صورته مع الزمن، فاختلّ سلوك المسلمين بفصل الإيمان عن العمل، واختلّ الالتزام - بتحوّله إلى مجرد شعارات جوفاء، ومجرد دعاوى وادعاءات - يوم أن انفصل عن الإيمان والعمل.

**المعلّم الثالث:** رُبَط العلم بالعمل والتبليغ والدعوة، فليس المطلوب في التربية القرآنية الترف المعرفي وحجم المعلومات والمعارف لذاتها وإنما الغاية من العلم العمل ومن المعرفة التطبيق إذ «العلم هو الطريق الصحيح للعمل»<sup>(١)</sup>، و«تضافر النصوص لتجعل العلم تعليماً وتعلماً قضية أساسية في المنهجية الإسلامية جملة، لأنه السبيل الأضبط لاستمرارية التدين السليم في الفكر والتصور، وفي العمل والسلوك»<sup>(٢)</sup>.

(١) التوحيد والوساطة ١/ ١١٠.

(٢) التوحيد والوساطة ١/ ١١٠.



إن هذه الأزمة في تصور العلاقة بين الإيمان والعمل أدى إلى إصابة جهاز العلماء بالموت والاستقالة عن وظائفهم في الأخذ بميراث النبوة؛ فأهملوا العمل، وتخلوا عن مهمة التربية والبلاغ، ولن تخرج الأمة من كبوتها الفكرية وأزمته النفسية إلا إذا عادت لمنهج الوحي في بناء الشخصية المسلمة والأمة المسلمة تربية تنبني على العلم للعمل والتربية والتبليغ.

**المعلم الرابع:** مراعاة التوازن والتكامل في بناء مكونات شخصية الفرد المسلم، ومكونات الأمة؛ فمكونات الشخصية النفسية والعقلية والبدنية والاجتماعية التواصلية ينبغي أن تحظى بتغذية متوازنة تحقق النمو الطبيعي والمتكامل من غير اختلال ولا اعتلال، ومن غير تضخم جانب على حساب جانب آخر. وفي مستوى مكونات الأمة ينبغي أن تبني الأمة ذاتها بحسب نموها الطبيعي والزمني وبحسب حاجاتها في كل مرحلة تربوية وتعليمية واقتصادية وفكرية وسياسية، محليا وإقليميا وعالميا.

**المعلم الخامس:** التوازن في الفقه، فليس المطلوب من المسلم والأمة الفقه في الدين وحده بل إن الحاجة ماسة لأفقاءٍ أخرى مكملة وعلى رأسها: فقه الواقع، وفقه الدعوة، ثم فقه التنزيل. إن المسلم الذي تتشعب شخصيته بروح هذه الأفقاء يكتسب شخصية متوازنة في الرؤية والتصور والتصرف، ويقل أن تقع ضحية الضغوط والإغراءات الموقعة في الهزيمة لأن هذه الأخيرة تأتي أحيانا كثيرة من اختلال فقه من هذه الأفقاء ومن نقصها، لذلك فالحرص على تحقيق هذه الأفقاء بكيفية صحيحة ومتوازنة من شأنه أن يقي الأمة من كثير من أنواع الزلل ومظاهر الخلل، ويقيها كثيرا من الأمراض والعلل.

**المعلم السادس:** معلم التربية بالقدوة: ولا قدوة خير ممن اصطفاهم الله رُسلا لعباده، ودعاة لكلمته، وهداة لرحمته. إنهم رسل الله وأنبياءه الذين أثنى

عليهم وعلى سيرتهم ونهجهم، فأمر خاتم رسله أن يقتدي بهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد كان اقتداؤه ﷺ أكمل، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، إنها تربية من شأنها أن تعيد الأمة إلى الإخلاص المطلوب والصواب المرغوب، فالأول يحقق صفاء الإيمان وصدقه وقوته، والثاني يحقق صدق الاتباع لسنة النبي ﷺ وسيرته، إذ الأمة أُتيت في هزيمتها من الاختلال الذي تسلسل إلى هذين الركنين في الدين: الإخلاص والصواب<sup>(١)</sup>.

لذلك فالتفقه في قصص الأنبياء والمرسلين وسيرة سيد المرسلين وخاتمهم إنما هو تفقه في التجارب التربوية التوقيفية المعصومة الصالحة للتأسي والاقتداء، لذا ينبغي أن ينصرف فيه النظر إلى «التركيز على الدروس الإيمانية والدعوية والجهادية والسننية، باعتبارها أهم ما يحتاجه الدعاة والمصلحون في هذا الزمان». ومن جملة ما يلزم التركيز عليه الوقوف على مقاصدها وحكمها التي من أجلها سيقت، نحو:

- استنباط منهج إحياء التدين في الناس، ومنهج الدعوة إلى الله جل وعلا؛ أصولاً وفروعاً، ثوابت ومتغيرات، وسائل وغايات.

- بيان سنن الله تعالى في التدافع بين أهل الحق والخير والهدى، وبين أهل الباطل والشر والضلال، وبيان عاقبة كل صنف.

(١) روي عن الفضيل بن عياض أنه قال في قوله تعالى: {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي! ما أخلصه، وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

- التعرف على ما يحتاجه الدين من توضيحات جسام، وما يلاقيه الدعاة إلى الله تعالى من ابتلاءات، وما يصيبهم في الله من أذى، ومقدار ما يحتاجه إليه بعث التدين وتجديده من صبر وثبات وحكمة، وحسن توكل وقوة يقين في الله عز وجل.

- التعرف على أساليب خصوم الدين في الصدود والصد عن الله وأساليبهم في الاحتواء والحرب المادية والمعنوية، وتربية الأمة على اكتساب المناعة من ذلك.

- التعرف على المنهج التربوي السليم الذي انتهجه الرسل بوحى من الله تعالى واكتملت صورته مع رسول الله ﷺ، ذلك المنهج التربوي الذي أفلح في تخريج نموذج عبد الله القوي الأمين العالم العامل المجاهد الحكيم، الثابت على الحق، لا تزغزه الأهوال، ولا تغيّره صروف الدهر، ولا تقلّبه الأحوال، ولقد كانت سيرة رسول الله ﷺ كلها تربية على التَّقْوَى بالإرادة والأمل والفأل والاستبشار، والتوقّي من اليأس والقنوط والاحتيار والانكسار.

## خاتمة

لعل من خلاصات الكلام في هذا المقام: التوكيد على أن ظاهرة الهزيمة النفسية للأمة ارتبطت بأسباب ذاتية وموجبات موضوعية وعلل تاريخية داخلية وخارجية، تفاعلت في مجملها فأفرزت ظاهرة عميقة شاذة لطبيعة الأمة التي هي طبيعة القوة لا الضعف، والإيجابية لا السلبية، والتأثير لا التأثير، والفعل لا الانفعال، والانتشار والانتصار لا الانحسار والانكسار.

وما دامت الهزيمة عرضية وليست جوهرية، وما دامت تاريخية وظرفية فيمكن رفعها ودفعها، لأن سنة الله اقتضت التدافع، وأوجبت العمل على دفع المفسد وجلب المصالح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإن أول خطوات الدفع هو تحديد حجم المفسدة وسبل دفعها، وتأسيس الإصلاح على أسسه الشرعية قواعد ومقاصد، وسائل وغايات. وعلى قدر الإخلاص يكون الخلاص، وعلى قدر صحة البدايات تكون النهايات.

ولا يدعي صاحب المقال أنه قد أتى بكل ما يسدّ الخلل، ويدفع العلل، غير أنه لا بد من ترك الجدل فيما لا يقبل الجدل، والشروع في العمل بحكمة وبصيرة في كل أمر جليل، والله وحده العاصم من الخطل والزلل، والمحقق للسؤل والأمل.